على الرغم من كل سنوات العمر التى تقترب من نصف المائة، على الرغم من كل الشوارع والحوارى والمدن والقرى والحدود والطرق الممتدة التى عرفها وجال فيها، فإنه بات يشعر هذه الأيام بأنه عاش ويعيش وسوف يموت على هامش الحياة.

حمزة البهلوان لم يكن ضعيفاً، ولم يكن يعرف أمراض الفكر والعقل التى تنخر فى عظام الرجال، إلا أنه كان يملك عيوناً زرقاء صافية يحب أن ينظر بها إلى قمم الأشجار، والسماء البعيدة، حيث الغيب والنجوم، وقوانين العالم الخفية.

عندما يدق طبلته السريعة، ويصيح صيحات الحرب والعمل والجنون، ويبدأ الأطفال، والرجال والنساء فى التجمع وتكوين حلقة حوله، وحوله «توسكا» الكلبة، و«العتر» ابنه، ويلقى فى وسط الدائرة بالسلاسل، والحبال، وسيخ النار، وطارة العجلة القديمة، وصندوق